تاريخ تُنبُكْتو منذ نشأتها إلى غاية القرن الحادي عشر الهجريّ
دراسة ثقافية تاريخية

د. الحاج بنيرد
أستاذ مساعد التراث والمخطوطات
جامعة مولود معمري
تيزي وزو – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ
لقد لعبت مدينة تُنبكتو شمالي مالي دورًا هامًّا في السّاحل الإفريقي، وشكّلت همزة وصل بين الغرب الإسلامي وبين إفريقيا جنوب الصّحراء، ومع ذلك فإنّني لم أقف على دراسة مخصّصة لها، وإنّما ذُكرتْ تبعا لِما يُعرف بالسّودان الغربي، وهذا ما جعلني أقوم بهذه الدّراسة محاولة لنفض الغبار عمّا طالها من الإهمال والنّسيان، فحاولت أن أجمع الإشارات الموجودة في مختلف الكتب والدّراسات، وأن أضعها تحتها المجهر، فذكرت موقعها وتاريخ نشأتها (القرن الخامس الهجريّ)، وأهمّ عوامل تأسيسها؛ وهي عامل تجاريّ لاشتهارها بتجارة الذّهب والرّقيق والملح، فقصدها النّاس من المشرق والمغرب والأندلس. وعامل سياسي تمثّل في انطلاق دعوة المرابطين من التّكرور على سواعد أمازيغ صنهاجة (لمتونة وجدالة ومسوفة)، وكانت منطقة تنبكتو حينها من أهمّ مراعيهم وأراضيهم. كما ساهم العامل الدّيني في نشأتها، وهو الرّغبة في نشر الإسلام في إقليم التّكرور وغانة، ومحاربة الوثنيّة في تلك البلاد. وذكرنا في هذا البحث أنّ تُنبكتو تناوبت عليها تقلبّات كثيرة، فعرفت أزهى أيّامها في عهد مملكة السُّنغاي في القرن التّاسع الهجري وما بعده؛ في عهد السّلطان موسى مَنْسا الّذي شيّد المساجد، وفي عهد الأسكيا محمّد الّذي اعتنى بالعلماء وأكرمهم. كما أنّها عرفت نكبات كثيرة، أهمّها نكبة سلطان مالي سُنّي علي الّذي حارب علماء تنبكتو وشرّدهم، ثمّ في نهاية القرن العاشر الهجريّ على يد السّعديّين الّذين قضوا على إشعاع تُنبكتو، وهذا ما فتح المجال واسعا أمام الوثنيّة، ثمّ حملات التّنصير مع الاستعمار الحديث.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ٨ يونيو ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ١٢ أغسطس ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:
السّودان، إفريقيا، المُرابطين، سُنْغَاي، آل أقيت

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
الحاج بنيرد. "تاريخ تُنْبُكْتو منذ نشأتها إلى غاية القرن الحادي عشر الهجريّ: دراسة ثقافية تاريخية".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص ٧١ – ٨١.

مُقَدِّمَةٌ
تُعَدّ مدينة تُنْبُكْتُو من أهمّ مدن السّاحل في الماضي والحاضر وربما في المستقبل، لقّبها المستكشفون بـ "جوهرة الصّحراء"، وقد مثّلت هذه المدينة منذ نشأتها بؤرة صراع ومركز ثقافة واطّلاع، وأثّرت فيما حولها وتأثّرت هي أيضًا بما حولها، فغدت من أهمّ مراكز الإشعاع الثقافي والحضاري خصوصا في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، ومع ذلك بقيت هذه المدينة مغمورة عند المثقفين فضلا عن عامة النّاس، ولم تحظ بالكثير من الدّراسات ولم تنل نصيبها من البحث الأكاديمي، وكلّ ما هنالك أنها معلومات مبثوثة هنا وهناك ومتفرقة بين بطون الكتب، حاولنا جمع ما أسعفنا الجهد والحظّ لذلك، ثم نسّقنا بينها وأبدينا ملاحظاتنا حولها كلما عنّ لنا في ذلك رأي أو فكرة، فجاءت هذه الدّراسة القصيرة محاولة لنفض الغبار عمّا طالها من الإهمال والنسيان. ولهذا كان التجرّؤ على اختيارها موضوعًا للدّراسة ضربًا من التوغّل في المجهول، ونوعًا من المخاطرة العلميّة، بالنّظر لقلّة المراجع في هذا المجال، وبالنّظر أيضًا لشحّ المصادر في ذكرها، ولولا الأحداث التي شهدتها في السّنوات الأخيرة ربما لم يسمع بها أحد.

وقد وقفت على بعض أخبارها في كتاب "وصف إفريقيا" للحسن بن محمد الوزان الفاسي الشهير بليون الإفريقي (ت. حوالي ٩٥٧هـ)؛ ويعدّ كتابه هذا خريطة جغرافية وملخصا تاريخيا اعتمده الرحالة الأوروبيون في رحلات استكشافهم للمنطقة، وكتاب "تاريخ السودان" لعبد الرحمن بن عبد الله السعدي التنبكتي (ت. ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٦م)، كما اعتمدنا في هذا البحث على كتب التراجم التي ألفها علماء المنطقة لنتعرف على علومهم ورحلاتهم؛ ونخصّ بالذكر كتاب "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" لأحمد بابا التنبكتي (ت. ١٠٣٦هـ/١٦٢٧م)؛ ويعد من أشهر علماء المنطقة كما يعد كتابه من أهم كتب التراجم التي لا يمكن أن يستغني عنه الباحث في التراث، ووقفت أيضا على كتاب "فتح الشكور في معرفة علماء تكرور" لأبي عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق الولاتي (ت. ١١١٩هـ)، وهو كتاب متأثر إلى حد بعيد بكتاب "نيل الابتهاج"، إضافة إلى بعض الكتب العامة في التاريخ وبعض الدّراسات التّاريخيّة المتفرقة ككتاب "العبر" لابن خلدون (ت. ٨٠٨هـ)، وكتاب "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" لأحمد بن خالد الناصري (ت. ١٣١٥هـ/١٨٧٩م)، وأيضا بعض الدّراسات التي تحدثت عمّا يُعرف بالسّودان الغربي. وما يُلاحظ على كتاب "تاريخ السّودان" لعبد الرحمان السّعدي هو كثرة التصحيفات والتحريفات فوقع من أخذ منه في ذلك، ولهذا فهو بحاجة إلى إعادة التحقيق، كونه حُقّق في وقت مبكّر على يد المستشرق هوداس في مدرسة اللغات الشرقية بفرنسا.

إشكالية البحث

متى تأسّست مدينة تنبكتو؟ وما هي مراحل الازدهار في تاريخها؟ وما هي مظاهر الانكسار والتأخر عن دورها الريادي في منطقة الساحل؟ وما علاقتها بمختلف الأقطار وخصوصًا بشمال إفريقيا؟ هذه هي الأسئلة التي نحاول الإجابة عنها في هذا البحث.

أولاً: موقع المدينة

١/١- كلمة تُنْبُكْتو:

كلمة " تُنْبُكْتو" كلمة أمازيغية باللّهجة الصّنهاجية مكوّنة من كلمتين "تين" و"بكتو"، ومعناها يخصّ العجوز أو خاصٌّ بالعجوز، لأنّها كانت أرضاً مِلْكاً لعجوز من طوارق إيمقشرن[١]. وقد ضبط ابن بطوطة (ت. ٧٧٩ هـ) كلمة "تُنْبُكْتُو" بضمّ التاء المثنّاة وسكون النّون وضمّ الباء الموحّدة وسكون الكاف وضمّ التّاء المثنّاة الثّانية وبعدها واو[٢]. ويكتبها غير واحد من المؤرّخين والعلماء "تُنْبُكْت" بلا واو في الأخير كأبي العباس المقري (ت. ١٠٤٠ هـ) في "أزهار الرّياض في أخبار القاضي عياض"، ومحمد أمين المحبي (ت. ١١١١ هـ) صاحب "خلاصة الأثر"، ومرتضى الزّبيدي (ت. ١٢٠٥ هـ) في "تاج العرس"، وعبد الحيّ بن عبد الكبير الكتّاني (ت. ١٣٨٢ هـ) في "فهرس الفهارس"[٣]. ومنهم مَنْ يكتبها "تمبكتو" بالميم بدل النون[٤]، وذلك ظاهر نتيجة قلب النون ميما لالتقاء النّون السّاكنة بالباء، ومنه أيضًا أُخذ المقابل بالفرنسية "Timbuctu"، ولهذا ترجمها الدكتور زكي نجيب محمود "تمبكتو" –بالميم- عند ترجمته لكتاب "قصّة الحضارة" لويليام جيمس (ت. ١٩٨١ م).[٥]

١/٢- إقليم تُنْبُكْتُو:

يقع إقليم تُنْبُكْتو في الشمال الغربي لدولة مالي حاليًا بمحاذاة الجنوب الجزائري وشرق موريتانيا، في منطقة مترامية الأطراف وسط الصّحراء الكبرى فيما يُعرف بالسّاحل الإفريقي الّذي يضمّ دول موريتانيا وجنوب الجزائر وشمال مالي والنّيجر وتشاد وليبيا إلى غاية سواحل المحيط الأطلسي، وربّما بسبب ذلك أُطلق على المنطقة تسمية منطقة السّاحل. وكانت تُعرَف هذه المنطقة قديما باسم التكرور[٦]، وباسم صحراء صنهاجة[٧] لأنّ قبائل صنهاجة البربرية أكثر من عمّرها وأشهر من ذُكر بها[٨].

وقد عَرّف محمد بن أبي بكر الصديق الوُلاتي (ت. ١١١٩ هـ) إقليم التّكرور بأنّه إقليم واسعٌ جدّا يمتدّ شرقا إلى أدْغاغ (أدرار الجزائرية)، ومغربا إلى بحر بني زناقية[٩] (المحيط الأطلسي)، وجنوبا إلى بيط (جنوب مالي)، وشمالا إلى أدرار (شمال موريتانيا)[١٠].

والبلاد الواقعة في أرض السّودان شديدة الحرارة إلا أنّ بها شيئًا من الرطوبة بسبب نهر النّيجر، وكلّ الأقاليم المجاورة لهذا النّهر صالحة جدّا للزّراعة، وتنمو فيها الحبوب بكثرة، وتوجد فيها من الماشية أعداد لا تُحصى، ويوجد فيها أيضًا أنواع الخضر إلا أنّ الفاكهة فيها قليلة أو منعدمة[١١]. أمّا مدينة تنبكتو فتتوسّط هذا الإقليم وتحتلّ موقعا استراتيجيا فيه، فالمارّ من شمال التكرور إلى جنوبه أو من شرقه إلى غربه لابدّ أن يمرّ على تنبكتو، وخاصّة أنه يمرّ بها نهر النّيجر ثمّ ينحني جنوبًا إلى مدينة غاو بنحو ثلاثمائة وعشرين كيلومترًا، وأمّا في الطريق إلى المحيط الأطلسي فتقع مدينة وُلاتة الموريتانية على الحدود مع الجزائر بنحو ذلك.

ثانيًا: تأسيس مدينة تنبُكْتو

يُجمع المؤرّخون على أن مدينة تنبكتو تأسّست في القرن الخامس الهجري أثناء قيام دعوة المُرابطين[١٢]، ولم نر من شذّ إلا ما ذكره إبراهيم الأبياري (ت. ١٤١٤ هـ) من أنها تأسّست سنة ٦١٠ هـ[١٣]، ويبدو أنّه اعتمد على ما ذكره الحسن الوزّان الشهير بليون الإفريقي بأنّ مدينة تُنْبُكْتُو بناها ملك مالي منسا سليمان سنة ٦١٠ هـ على نهر النّيجر[١٤]، والصّواب أنّ هذا الملك أعاد بناءها.

لقد كانت منطقة تنبكتو معبرا للقوافل بين غرب إفريقيا وشمالها وبين وُلاتة والقاهرة، ومن ثمّة إلى الشّام والحجاز، ولهذا كانت محلا للبدو الرّحّل، وخاصّة بعض فروع صنهاجة كلمتونة وجدالة ومسوفة؛ إذ يذكر المؤرّخون بأنّها كانت طريقًا للتّجارة من مدينة غاو وما دونها من بلاد غانا إلى المغرب والقاهرة والشّام والحجاز، وبأنها كانت محلا للظعن والحِلّ والتّرحال لقبائل صنهاجة، ويقدّرهم ابن خلدون (ت. ٨٠٨ هـ) بأنّهم ثلث سكّان البربر في المغرب[١٥].

ويبدو أنّ بداية الاستقرار بها كان في أواسط القرن الخامس الهجري، وبالضّبط عند نزول المرابطين الأوائل بها، فنزل بأحوازها الشّيخ المصلح عبد الله بن ياسين (ت. ٤٤٩ هـ/١٠٥٧ م) على مقربة من تُنْبُكْتُو[١٦]، فوفد عليه كثير من أشراف هذه المنطقة فبلغوا ألفا، وبدأ بتغيير المنكر ومحاربة البدع والعادات الوثنية في تلك النّواحي، فحارب جدالة في نحو ثلاثة آلاف مقاتل سنة ٤٣٤ هـ، ثمّ سار لقتال لمتونة حتّى أذعنوا للطّاعة، ثمّ مسوفة حتّى خضعت قبائل صنهاجة كلّها، وبهم سار إلى الشّمال في صحراء موريتانيا وسجلماسة وأغمات بالمغرب الأقصى[١٧]. وقد قدّر عدد قبائلهم بنحو سبعين قبيلة يعيشون حياة البدو والرعي في تخوم الصحراء.[١٨]

ونرى بأنّ انطلاق دعوة المرابطين من هذه المنطقة، وظهور دولتهم على سواعد لمتونة وغيرها من قبائل صنهاجة كان له الأثر الأكبر في تكوّن تجمّع سكّاني مستقرّ بالمنطقة، وعمدته قبائل مسوفة بعد أن انتقل إخوانهم اللمتونيون مع عبد الله بن ياسين إلى المغرب الأقصى ثم إلى الأندلس. وممّا يزيد هذا الطّرح الذّي ذهبت إليه جلاء وقوّة هو أنّ المؤسّسين لمدينة تنبكتو هم التّوارق وهم مسوفة الصّنهاجية، وهم أغلب سكانها أيضًا[١٩]. وهذا التّجمّع السّاذج – على حدّ تعبير ابن خلدون – تأسّس على مبادئ الدّين ذات المرجعية السُّنّيّة بعقيدة الأشعري والمذهب المالكي والمنهج الصّوفي، تأثرًا بدعوة المرابطين؛ حيث لم تُعبد فيها الأوثان، ولا سُجد فيها لغير الرّحمان، على حدّ تعبير صاحب "تاريخ السّودان"[٢٠].

ويذكر عبد الرّحمان التّنبكتي السّعدي (ت. ١٠٦٦ هـ/١٦٥٦م) بأنّها نشأت على يد توارق إيمقشرن في القرن الخامس الهجريّ، فاختاروا موضع تنبكتو على ضفاف نهر النّيجر، ثمّ اجتمع إليهم من كلّ بلاد؛ من مصر وفزّان وغدامس وتوات ودرعة وسوس وفاس[٢١]. ويذكر بأنّ بناءها كان بسيطًا في البداية، فكانوا يبنون بالأشواك والجرائد، ثمّ تحوّلوا إلى بناء أسوار قصار بحيث من وقف في خارجها يرى ما في داخلها، ثمّ بنوا المسجد الجامع بحسب ذلك، ثمّ مسجد سانكُري كذلك، وما ثبتت عمارته إلا في القرن التّاسع، وهي بداية العصر الذّهبي لمدينة تُنبكتو، وما تكامل بناؤه إلا في أواسط القرن العاشر في عهد حاكمها أسكيا داود[٢٢].

ثالثا: عوامل نشأة مدينة تنبُكْتو

اجتمعت مجموعة من العوامل التي أسّست لمدينة كبيرة في قلب صحراء التّكرور، أهمّها عامل تجاري، وسياسي، وديني. سنحاول توضيح كلّ عامل فيما يلي:

١/٣- العامل التّجاري:

يُعتبر العامل التّجاري أهمّ عامل في نشوء مدينة تنبكتو في القرن الخامس الهجريّ، فهذه المنطقة كانت ملتقى القوافل المتجهة من مناجم الذّهب في غانا وغيرها مرورًا بغاو إلى الشّمال الغربي باتّجاه سجلماسة ودرعة ومراكش وفاس وتلمسان، وباتّجاه الشّرق نحو توات وميزاب وورقلة وتونس وطرابلس الغرب والقاهرة ثم بلاد الحجاز والشّام. وخصوصًا بعد ظهور دولة المرابطين في القرن الخامس الهجريّ الّذين نشطت بفضلهم التّجارة في الجنوب، فهم يعرفون المنطقة جيّدًا؛ إذ منها خرجوا ومنها تكوّنت نواة دولتهم، فعملوا على تأمين السّبل، فتنوّعت السّلع وكثرت حركة القوافل، وخصوصًا تجارة التّبر والذّهب القادم من غانا وضفاف نهر النّيجر ونهر السّنيغال[٢٣].

ويضاف إلى ذلك؛ تجارة الرّقيق والعبيد، وهي تمثل إحدى أهمّ المعاملات التّجارية في بلاد السّودان، ممّا يحرّك همم تجار مختلف الأصقاع نحوها، وهي تجارة رائجة جدًا منذ القديم، كما يقول الشريف الإدريسي (ت. ٥٥٩هـ/ ١١٦٦ م) :" ويُباع منهم – أي الرّقيق – في كلّ سنة أمم وأعداد لا تُحصى"[٢٤]. فاستعملهم المرابطون في جيوشهم، وكانوا ممّنْ ساهموا في نصر معركة الزّلاقة قرب طُلَيْطلة قرب الأندلس سنة ٤٤٦ هـ[٢٥]، وبالتّالي تمكّنوا من إطالة عُمر العصر الإسلامي في الأندلس لقرون أخرى، ولهذا أيضًا نتفهّم رواج تجارة العبيد إلى عهد متأخّر وخصوصًا في بلاد المغرب الأقصى، وأنّ ذلك من آثار ونتائج سياسة دولة المرابطين منذ عهودهم الأولى.

وشملت السّلع الآتية من الجنوب إضافة إلى ما ذُكر الشّبّ وجلود الحيوانات المفترسة وغيرها، فعمّ الثّراء هذه المنطقة، وهذا ما ساعد المسوفيّين وغيرهم من قبائل صنهاجة على الاستقرار وترك حياة الظّعن والتّرحال بحثًا عن الماء والرّزق وكلإ مواشيهم. وأمّا المواد المصدّرة نحو الجنوب فتمثّلت في الملح خصوصًا، وكان يُعتبر المادّة الأولى للمقايضة والتّبادلات التّجاريّة عندهم، ويُدّخر منه الكثير باعتباره مادة استراتيجية للسّودانيّين، وفي وقت الحاجة قد يُقايض مع الذّهب بالمثل، وكان نقد منطقة غاو هو الملح[٢٦]. ويصدّر إليهم كذلك النّحاس والزّجاج وخشب الصّنوبر وبعض المواد الغذائية كالقمح الذي يحتاجه أهل تُنبكتو وغيرها[٢٧]. وكانت مدينة تُنبكتو من أهمّ المدن التّجارية في الغرب الإسلامي في منطقة الصّحراء رفقة مدينة وُلاتة، وهذا في القرن الرّابع عشر الميلادي ممّا أدّى بها إلى الاستقرار والثّراء ونشوء مناخ ثقافي وعلمي هامّ بها فهاجر إليها الكثير من العلماء.

٢/٣- عامل سياسي:

يتمثّل العامل السّياسي في قيام دولة المرابطين انطلاقًا من أحوازها، ولا يخفى أنّ دولة المرابطين قامت على سواعد أشراف صنهاجة، فبعد إقامة المصلح عبد الله بن ياسين بين أظهرهم، وتأسيسه لرباط في الصّحراء، فالتفّ حوله جمع من سادات قبائل لمتونة ومسوفة وجدالة، وهذا الموضع الّذي انقطع فيه عبد الله بن ياسين وأصحابه كان فيما يُرجّح جزيرة تقع في منحنى نهر النّيجر على مقربة من تنبكتو[٢٨]، وهذا الرّباط الجديد الّذي لم يألفه قومٌ دأبوا على الحِلّ والتّرحال جعلهم يتجمّعون بعدما كانوا متفرّقين، ويستقرّون بعدما ألفوا كثرة التنقل، وخاصّة بعد قيام عبد الله بن ياسين بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ومحاربة البدع والوثنيين

والظلمة، وهذا بطبيعة الحال أدّى إلى تكتّل النّاس استعدادًا للأخطار المحدقة بهم، فإمّا أن ينضمّوا إلى صفوفه، وإمّا أن يستعدّوا لمواجهته فيضطرّون بدورهم أيضًا إلى التّكتّل، فحارب جدالة في نحو ثلاثة آلاف مقاتل سنة ٤٣٤ هـ، ثم سار لقتال لمتونة حتى أذعنوا للطاعة ثم مسوفة حتى خضعت قبائل صنهاجة كلها، ثمّ صوّب المرابطون أعينهم إلى إمبراطورية غانا فتوجّهوا إلى الشّرق نحو منحنى النّيجر سنة (٤٤٧ هـ/ ١٠٥٦م)، وخاضوا معارك قاسية هناك خسروا فيها أحد أهمّ المؤسّسين لدعوتهم، ونشر تعاليم الإسلام على منهج المذهب المالكي، فتضاعف عددهم وزاد رصيد بيت المال بأموال الزّكاة، وهو الأمر الّذي جعلهم يواصلون حملتهم، وبدأوا يزحفون جهة الشّمال ناحية سجلماسة وأحوازها[٢٩]، فوصلوا سوس وأغمات، ولما ضاق بهم المكان اختطّوا مدينة مراكش سنة (٤٦٢ هـ/ ١٠٦٩م)، ووقع اختيارهم عليها لأنها مناسبة لما ألفوه في الصّحراء[٣٠]، ولهذا نعتقد بأنّ مدينة تُنبكتو بُنيت في وقت بناء مدينة مرّاكش، لأنّهم ذكروا بأنّ جدالة ولمتونة بنوا مدينة مراكش، بينما بقي إخوانهم مسوفة بالتّكرور وذكروا بأنهم بنوا مدينة تُنبكتُو في نفس المرحلة[٣١]، ولهذا فبناؤها مرتبط أساسًا بقيام دولة المرابطين، والله أعلم.

٣/٣- العامل الدّيني:

تقدّم بأنّ رباط ابن ياسين امتدّ تأثيره إلى كلّ بلاد التّكرور، وأنّ الصّنهاجيّين استبدلوا حياة الكدح والعنت والتّرحال بحياة البذخ والاستقرار، وأنه بقي فئام من الصّنهاجيّين بمواطنهم في بلاد التّكرور بعدما انتقل إخوانهم إلى بلاد المغرب الأقصى والأندلس، فبنى مَنْ بقي منهم من صنهاجة مسوفة ما يحتاج إليه المقيم من دور ومساجد، فشذّت عمّن جاورها من مدن السّودان الّتي عمرت بالديانات الوثنية، وكما يقول عبد الرّحمان السّعدي: "... ما دنّستها عبادة الأوثان، ولا سُجِد على أديمها قطّ لغير الرّحمان، مأوى العلماء والعابدين، ومألف الأولياء والزّاهدين"[٣٢]. ولهذا نراهم اعتنوا ببناء المساجد كونها دُور عبادة وتعليم وقضاء، وهذا هو الدّور الأساسي الّذي اطّلعت به مساجد تُنْبُكْتو.

- بناء المساجد:

لاشكّ بأنّ المساجد والكتاتيب كانت كثيرة بمدينة تنبكتو، وأشهرها مسجدان: الأول هو المسجد الجامع الذي يقع في وسطها بناه ملك مالي منسا موسى، وقد وصفه ليون الإفريقي عند زيارته لها، وقال: "في وسط المدينة مسجد مبنيّ بالحجر المركّب بالطّين والجير على يد مهندس أندلسي"[٣٣]، ويبدو أنّه إلى غاية زمن الحسن الوزّان قد تعرّض إلى البناء عدّة مرّات، الأولى على يد المسوفيّين بالأخشاب وجرائد النّخل، ثمّ على يد الملك منسا موسى، ثمّ في زمن الوزّان أو قبله على يد هذا المهندس الأندلسي. ثمّ بُني بعد ذلك مسجد سانكُري[٣٤] على أطراف المدينة، وقد اجتمع فيه الغرباء في بادئ الأمر، ثمّ علا شأنه حتّى صار مركزًا ثقافيًا إسلاميًا حقيقيًا لدراسة العلوم الإسلامية واللّغوية والدّينية، ويُعَدّ أوّل جامعة للدّراسات الفقهيّة واللغوية والدّينيّة في منطقة الصّحراء، وصار يضاهي كبار جوامع العالم الإسلامي كالأزهر والقرويّين والزّيتونة، وتخرّج منه علماء تنبكتو وفقهاؤها، واشتهرت فيه عائلة محمّد آقيت التي توارثت العلم كابرًا عن كابر، وكان منهم العلامة أحمد بابا التُّنْبُكْتي (ت. ١٠٣٦ هـ)، وقد نُقِل عن القاضي محمد الكابري أنّه قال: "أدركت من صالحي سنكُري من لا يقدّم عليهم في الصّلاح أحدٌ إلا أصحاب رسول الله (ﷺ) ورضي عنهم أجمعين"[٣٥]. وقد بناه أيضًا السّلطان منسا الحاج موسى صاحب مالي في وسط مقبرة، وهذا بعدما رجع من الحجّ وتملّك تنبكتو، وبعد ذلك تولّى القاضي العاقب بن محمود آقيت إعادة بنائه فوسّعه سنة ٩٨٥ هـ[٣٦].

رابعًا: مرحلة الازدهار

يُعَدّ عصر ملك مالي منسا موسى في القرن الثّامن الهجريّ (١٣١٢م-١٣٣٧م) بداية عصر الازدهار الفكري والحضاري في ما يُعرف بالسّودان الغربي، وفي عهده أصبح الإسلام راسخ الأركان، وساعده على ذلك شُهرة هذا السّلطان في كل العالم الإسلامي في ذلك الوقت، وخصوصا بعد قيامه سنة (٧٢٤ هـ/ ١٣٢٤م) برحلته الشّهيرة إلى مكّة لأداء فريضة الحجّ، وقد رافقه في هذه الرّحلة الآلاف من رعاياه، وقام بصرف أموال طائلة أدّت به إلى الإفلاس عند نزوله بمصر، فلجأ إلى الاقتراض من أحد تجّار الإسكندريّة يُدعى سراج الدّين الإسكندري، والذّي لحق به فيما بعد لاسترداد أمواله، وهذه الحادثة تدلّ على مدى الارتباط بين تجّار المشرق وتنبكتو، كما تبيّن مدى التّقوى وأخلاق الملوك والرّعيّة الّتي حسُنت أحوالها في هذه المرحلة.[٣٧] وقد شملت مملكة مالي في عهد منسا موسى بلاد التّكرور والصّحراء الكبرى، ثمّ أخذت هذه الدّولة في الانحطاط مع بداية القرن الخامس عشر الميلادي (التّاسع الهجريّ)، وفقدت سيطرتها على التّكرور وتُنبكتو.[٣٨]

- مملكة سُنْغَاي:[٣٩]

يرى المؤرّخون بأنّ مملكة سُنْغَايْ أو إمبراطوريّة سُنْغاي كانت من أقوى الممالك الإسلامية التي قامت بالسّودان الغربي، وامتدّ نفوذها إلى جنوب الصّحراء، ووصلت إلى كانو بنيجيريا زيادة إلى كلّ إقليم التّكرور، وتحوّلت في عهد ملكها سُنّي[٤٠] علي في القرن التّاسع الهجري (١٤٦٤ م -١٤٩٢ م) إلى إمبراطورية عظيمة[٤١]. وازدادت قوّتها وأهميتها بعد مجيء الأسكيا الحاج محمّد الّذي انقلب على ابن الحاكم السّابق سُنّي علي، وقد بذل جهدًا كبيرًا في نشر الإسلام في المدن الوثنيّة جنوب الصّحراء، كما أمِنت في عهده السّبل، وعمِرت المساجد، وعلا شأن العلماء وصارت لهم مكانة مرموقة في بلاط الحكم وفي تنظيم شؤون العامّة، وهذا الأمر هو الّذي أدّى إلى رغبة النّاس في العلم وتنافسهم في التّحصيل، وفي عهده بلغت مدينة تُنْبُكْتو الغاية في العلم والحضارة، وفي عصر ابنه أسكيا داود بن الحاج محمّد وصلت هذه المدينة إلى ذروتها في البناء والتّشييد[٤٢]. وقد ظلّت مدينة تُنْبُكْتُو طيلة القرنين الخامس عشر والسّادس

عشر مركزاً عظيماً لتلقّي العلوم الإسلامية في السّودان الغربي وعموم إفريقيا.

ولهذا تعدّدت الهجرات الكثيرة إليها طلبا للثّراء باعتبارها من أهمّ أسواق الذّهب والعبيد، والّتي تُدرّ أرباحًا طائلة، تجعل التّجّار يتجشّمون الصّعاب والمشاقّ للوصول إليها، أو رغبة في العلم والتعلّم والدّعوة إلى دين الإسلام، أو هجرة أهلها إلى غيرها من البلدان طمعا في علم أو فرارا من مكروه. ويبدو أنّها في بداية شأنها ذاع صيتها وهيب جانبها فراسلها السّلاطين والأمراء، وقد وجدنا بأنّ السّلطان محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي (ت. ٩٣١ هـ) أرسل إلى الأسكيا الحاج محمّد سلطان سُنْغَاي (ت. ٩٣٤ هـ/ ١٥٢٨م) وفدًا هامًّا بهدايا، كان فيهم الحسن بن محمد الوزان الشّهير بليون الإفريقي؛ وكان غلاما ذا ستّ عشرة سنة.(٤٣)

٤/١- هجرة علمائها إلى غيرها من البلدان:

اختلفت دواعي هجرة علماء تُنبكتو وطلبتها إلى عواصم العالم الإسلامي، فقد تكون لطلب العلم وزيارة العلماء وغالبا للحجّ، وقد تكون أيضًا طلبًا للأمن أو فرارا من مكروه أو يؤخذون إكراهًا لغيرها من المدن؛ كما حدث مع أحمد بابا التُّنْبُكْتي (ت. ١٠٣٦ هـ) مع خيار علماء أهله حين أُخذوا مصفّدين إلى مرّاكش في عهد السّلطان المنصور أحمد السّعدي (ت. ١٠١٢هـ).

- الهجرة إلى الحجّ والمشرق:

رحل إلى المشرق علما كثيرون من أهل تُنْبُكتو، فأفادوا واستفادوا، وتتبّع جميع هؤلاء ممّا لا تسمح به هذه الدّراسة، ولكن لا بأس بالتّمثيل:

فقد رحل الحاج أحمد بن عمر بن محمد آقيت التُّنْبُكْتي (ت. ٩٤٣ هـ) جدّ أحمد بابا صاحب "نيل الابتهاج" إلى المشرق للحجّ، فلقي الجلال السُّيوطي (ت. ٩١١ هـ) وخالد بن عبد الله الأزهري (ت. ٩٠٥ هـ) وغيرهما، فاستفاد منهم ورجع إلى بلده للإفادة والتّدريس.(٤٤)

- ومنهم والد أحمد بابا الذي التقى باللقاني والأجهوري وعبد الرّحمان بن أحمد المغربي الطرابلسي الشّهير بالتاجوري (ت. ٩٦٠ هـ)، وابن حجر المكي والفاكهاني وزين بن أحمد بن يونس الجيزي (ت. ٩٩٧ هـ) وغيرهم، واستفاد منهم وأجازوه، ثمّ رجع إل بلده واستفاد منه أهل تُنبكتو، ومنهم ابنه أحمد بابا.(٤٥)
- ومنهم الفقيه أحمد بَغْيُع بن محمود التّنبكتي (ت. ٩٧٨ هـ) وأخوه محمد بَغْيُع، رحلا إلى الحجّ، ولقيا النّاصر اللقاني والتّاجوري وغيرهما فاستفادا منهم، ولما رجعا إلى تنبكتو جلسا للتّدريس، واستفاد منهم طلبة تنبكتو، ومنهم أحمد بابا.
- ومنهم المتصوّف أبو بكر بن أحمد بن عمر بن محمد آقيت التُّنْبُكْتِي عمّ أحمد بابا نزيل المدينة المنوّرة مع كافّة عياله، وسكنها إلى أن تُوُفّي بها سنة ٩٩١ هـ، وهو شيخ لأحمد بابا في العربية وغيرها.(٤٦)
- وممّنْ رحل إلى المشرق زمن أبي القاسم النّويري في أواسط المائة التّاسعة الفقيه عبد العزيز التّكروري، وكان عالما بمختصر خليل استفاد منه أهل مصر، وقد نقل عنه الحطاب في شرح مختصر خليل.(٤٧)
- ومنهم الفقيه محمد بن أحمد بن أبي محمد التّازختي (ت. ٩٣٦ هـ) الشّهير بأَيْدَ أحمد، أخذ عن الحاج أحمد بن عمر التّنبكتي ببلده، ثمّ انتقل إلى تكدة بالتكرور فلقي بها محمد بن عبد الكريم المغيلي وحضر دروسه، ثمّ شرّق صحبة الفقيه محمود بن عمر، فلقي القلقشندي والسّنباطي وجماعة، فأخذ عنهم علم الحديث وسمع وروى، ولقي اللقانيين الشمس والنّاصر أخاه، وأجازه من أهل مكّة أبو البركات النّويري وغيره، واجتهد حتى صار من محصّلي العلماء، ثمّ قفل إلى السّودان فنزل بلدة كشن، وأكرمه صاحبها وولاه قضاءها.(٤٨)
- ومنهم قاضي تنبكتو الفقيه أبو المحاسن محمود بن عمر بن محمد آقيت المسوفي الصّنهاجي، عالم التّكرور، ولي القضاء سنة ٩٠٤ هـ، وكان أكثر إقرائه من المدوّنة والرّسالة والمختصر في الفقه المالكي؛ وله تقاييد عليه؛ وعنه انتشر إقراء مختصر خليل في ولاتة، وألفية ابن مالك في النّحو، حجّ سنة ٩١٥ هـ فلقي السّادات كالقلقشندي واللقانيّين وغيرهم، ثمّ رجع إلى تنبكتو ولزم الإفادة إلى أن تُوُفّي سنة ٩٥٥ هـ.(٤٩)
- والفقيه العاقب بن عبد الله الأنصمني المسوفي (ت. ٩٩١ هـ)، أخذ عن المغيلي عند دخوله لبلاد السّودان، ورحل إلى المشرق فأخذ عن الجلال السّيوطي، له أجوبة على الأسكيا الحاج محمد سمّاها: "أجوبة الفقير عن أسئلة الأمير"، وأجوبة أخرى للقاضي محمد بن محمود سمّاها: "الجواب المجدود عن أسئلة القاضي محمد بن محمود"، وهو من شيوخ أحمد بابا.(٥٠)

تنويه: يُعَدّ ناصر الدّين محمد بن حسن اللقاني من أهمّ شيوخ علماء تُنبكتو، وقد دارت عليه الفتوى بمصر، وأُستفتي في النّوازل من جميع الأقطار. وقد أخذ عنه الكثير من علماء تنبكتو، منهم أحمد بن أحمد التنبكتي والد أحمد بابا، والقاضي العاقب الأنصمني الّذي أجازه جميع ما يجوز له، والفقيه المجدّد محمد بَغْيُع أهمّ شيوخ لأحمد بابا، وأخوه أحمد بغيع وغيرهم كثير.(٥١)

- الرّحلة إلى ولاتة من إقليم التّكرور:

فرّ الكثير من علماء تُنْبُكْتُو من مسجدها سانكُري إلى ولاتة بسبب الاضطرابات الّتي شهدتها في عهد ملك مالي سُنّي علي؛ بعد حملته على مدينة تُنْبُكتو لإخضاعها لسلطته:

- من أبرزهم محمد آقيت المسوفي جدّ الفقهاء والقضاة بتنبكتو، رحل في القرن الثّامن من تنبكتو إلى ولاتة منافرة لبعض أهلها وولاتها، ومخافة أن يتناسل بعض أبنائه معهم، ثمّ رجع إليها بعدما أسنّ، فارتحل مع عياله وسكنها.(٥٢)
- منهم المختار بن أندغ محمد التُّنْبُكْتِي الشّهير بالنّحوي (ت. ٩٢٢ هـ)، وابن أخته الحاج أحمد، والفقيه محمود بن عمر بن محمد آقيت.

- ثمّ تلتها رحلات أخرى منها رحلة محمد بن محمد التُّنْبُكْتي ثمّ الولاتي (ت. ١٠٥٠ هـ) الّذي كان بولاتة ثمّ هاجر إلى تنبكتو، وفي فتنة سُنّي علي رجع إلى ولاتة وبها تُوُفّي، ودخل إليها القاضي عمر بن محمّد آقيت الصّنهاجي التّنبكتي، ثمّ رجع ابنه الفقيه محمود بن عمر إلى تُنْبُكْتُو سنة ٨٨٥ هـ.[٥٣]
- وممّن هاجر إلى وُلاتة ببلاد التّكرور الفقيه المؤرّخ أبو العبّاس عبد الله بن أحمد بن سعيد الزّمّوري (ت. بعد ٨٨٨ هـ)، فأقرأ أهلها ولقي فقهاءها وأثنى عليهم في العلم ثمّ رجع إلى بلده.[٥٤]

- الرّحلة إلى المغرب:

هاجر الكثير من علماء تُنْبُكْتُو إلى مدن المغرب لطلب العلم، كفاس ومُراكش وغيرها، منهم الفقيه مخلوف بن علي بن صالح البلبالي التّكروري (ت بعد ٩٤٠ هـ)، أخذ بتنبكتو عن عبد الله بن عمر آقيت الرّسالة وغيرها، ثمّ سافر إلى الشّمال فأخذ عن محمد بن أحمد ابن غازي (ت. ٩١٩ هـ) وغيره بفاس، ودخل بلاد السّودان وأقرأ أهلها وجرى له هناك نوازل وأبحاث مع الفقيه العاقب الأنصمني، ثمّ عاد إلى تُنْبُكْتُو بعدما طوّف البلاد وجلس للتّدريس، ثمّ تحرّكت همّته فعاد إلى مُرّاكش وأقرأ بها إلى أن سُمّ هناك فمرض ورجع إلى تُنبكتو فمات بها بعد ٩٤٠ هـ.[٥٥]

- وأجاز أبو العبّاس أحمد بن محمد المقري التّلمساني (ت. ١٠٤٠ هـ) بعض علماء التّكرور، منهم عثمان بن عمر التّكروري (ت. ١١٢٨ هـ)، وله إجازات كتب الحديث ومختصر خليل وغيرها[٥٦].

٢/٤- الرّحلة إليها من باقي الأقطار:

وفد إلى تُنبكتو الكثير من علماء الأقطار، فجاءوها رغبة في نشر العلم، أو لِما سمعوا من ثرائها ومكانة العلماء عند أهلها، أو دعوة من سلاطينها للاستفادة منهم، أو للأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر؛ كما حدث مع الشّيخ محمّد بن عبد الكريم المغيلي (ت. ٩٥٤ هـ).

- الرّحلة من الحجاز إلى تُنبكتو:

وفد على تُنْبُكْتُو عبد الرّحمان التّميمي الحجازي (ق ١٠ هـ) مع السّلطان سُنّي موسى حين رجع من الحجّ، فسكن تُنبكتو وأدركها حافلة بالفقهاء السّودانيّين، ولما أتاها وجدهم أكثر منهم علما وفقها، فرحل إلى فاس وتفقّه بها ثمّ رجع إلى تنبكتو فجلس للتّدريس، وكان الفقيه الصّالح يحي التّادلسي إذا جاءه الطّلبة أرسلهم إليه، وله بها عقب منهم حفيده القاضي حبيب[٥٧].

- الرّحلة من توات إليها:

رحل إليها الكثير من طلبة العلم بتوات إلى تنبكتو، فصار لهم بها صيت، وصاروا من أهمّ مكونات المجتمع التنبكتي، فمنهم العلماء والصّلحاء والأئمّة. فرحل إليها عل سبيل المثال: أحمد بن عمر الحماني التواتي (ت. ١١٣٨ هـ)، له مكتبة عامرة خاصّة بكتب التّصوّف، وهو من المتصوّفة الّذين استوطنوا تنبكتو.[٥٨] ومنهم أيضًا أبو القاسم التواتي (ت. ٩٢٢ هـ وقيل سنة ٩٣٥ هـ)، والّذي صار إمام المسجد الجامع وسط تُنبكتو، وكان مشهورًا بإطعام الطّعام، وأكثر إطعامه للمدّاحين، لشدّة محبّته للنّبيّ (ﷺ)، ولما دُفِن حُكِي بأنّه أوّل من دُفِن في المقبرة الجديدة، وقيل إنّ معه في تلك المقبرة خمسين رجلاً من أهل توات.[٥٩] ومن أهل سوف شرقي توات رحل إليها أحمد بن آك السّوفي اللغوي الفقيه النّحوي، أخذ عن علامة تُنْبُكْتُو محمد بَغْيُع التّنبكتي.[٦٠]

- الرّحلة من جَنْج إليها:

ورحل إليها من فضلاء جَنْج بإقليم التّكرور الفقيه صدّيق بن محمد تغل الجنجي ثمّ التنبكتي (ت. ٩٧٣ هـ)، رحل إليها بعدما درس عنده أحد الطّلبة في جنج، ثمّ انتقل إلى تُنْبُكْتُو للاستزادة، ولما رجع فاق شيخه صدّيق الجنجي في بعض المسائل، فقال الشّيخ: ضيّعنا عمرنا باطلا، وارتحل إلى تنبكتو وصادفها في أزهى أيّامها، فأخذ عن علمائها منهم الفقيه القاضي محمود بن عمر وغيره حتّى صار إماما بالجامع الكبير وسط تُنبكتو. وعندما ذهب إلى الحجّ اجتمع بالفقهاء منهم محمد البكري الصّدّيقي، فجعل يسأله عن فقهاء تنبكتو[٦١]، وهذا يدلّ على شهرة علماء تنبكتو في المشرق خلال تلك الفترة.

- الرّحلة من الأندلس إليها:

لقد كانت علاقة الأندلس ببلاد السّودان وثيقة منذ حكم الأُمويّين، وهذا قبل بناء مدينة تنبكتو، وقد انتقل إليها عدد من علماء الأندلس وأدبائها؛ منهم أبو إسحاق السّاحلي (ت. ٧٤٧ هـ)؛ وهو من بيت علم وثروة وصلاح، ذهب إلى الحجّ وفي طريق رجوعه دخل بلاد السّودان فاستوطنها، وأصبح له بها جاه عظيم عند سلطانها، فبنى المساجد الكثيرة بها[٦٢].

رحل إليها الكثير من أعيان الأندلس بداية من القرن الثّامن الهجريّ، فقد قَدِم إلى التّكرور اللغوي النّحوي أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الأنصاريّ الأندلسي (ت. ٧٢٤ هـ) في القرن الثامن الهجري، فأقرأ أهلها القرآن، ثمّ انتقل منها إلى القاهرة فأخذ عن جمال الدّين الإسنوي[٦٣]، وهو والد سراج الدّين ابن الملقن (ت. ٨٠٤ هـ)[٦٤].

- الرّحلة من فاس إليها:

وممّن رحل إلى السّودان من أهل فاس العلامة أبو محمد سُقَّيْن؛ وهو عبد الرّحمان بن علي بن أحمد القصري الفاسي (ت. ٩٥٦ هـ)، أخذ العلم ببلده ثمّ شرّق فأخذ الحديث عن أصحاب ابن حجر كالقلقشندي وغيره، وفي رجوعه دخل إلى بلاد السّودان ووصل كانو، وعظّموه وأعطوه مالاً جزيلا، وبقي هناك مدّة ثمّ رجع إلى فاس سنة ٩٢٤ هـ، وتولّى إمامة جامع الأندلس ثمّ عُزِل، وبعدها أكبّ على رواية الحديث وإقرائه إلى أن تُوُفّي سنة ٩٥٦ هـ[٦٥].

- رحلة محمد بن عبد الكريم المغيلي إلى تُنْبُكْتُو:

لمّا انتقل المغيلي من تلمسان إلى توات واستوطنها صادف سيطرة اليهود على توات ومعظم طرق الصّحراء، فصاروا يتحكّمون في التّجارة، فتعاظمت ثروتهم واشتدّت شوكتهم فأعلنوا بدعهم، وبنوا البِيَع وأعلنوا شعائرهم، فقام عليهم المغيلي وحاربهم وهدّم بيعهم، ونازعه في ذلك الفقيه العصنوني قاضي توات، وراسلوا في

ذلك علماء فاس وتلمسان وتونس، فكتب الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي رسالة يُصوّب فيها رأي المغيلي، ووافقه عليها الإمام محمد بن يوسف السّنوسي (ت. ٨٩٥ هـ)، وحين وصل جواب التّنسي ومعه كلام السنوسي لتوات أمر المغيلي أتباعه فلبسوا لأمة الحرب، وقصدوا بِيَعَ اليهود فهدّموها، وأمر بقتل من يعترض طريقهم، ونظم المغيلي قصائد في المديح النّبوي وذمّ اليهود ومن ناصرهم.

ثمّ دخل بلاد السّودان واجتمع بأهلها وانتفعوا به، وشجّعهم على القيام بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر واتّباع أحكام الشّرع، ووصل كانو، ثمّ رجع إلى غاو واجتمع بصاحبها الأسكيا الحاج محمد، وتولّى فيها منصب مستشار في بلاط ملكها الّذي عيّنه ممثلا له، وألّف له تأليفًا أجابه فيه عن مسائل تتعلّق بالسّياسة الشّرعية وتنظيم الشّؤون العامّة[٦٦]. وبعدها اجتمع بالفقيه القاضي أبي المحاسن محمود بن عمر التّنبكتي بتُنبكتو، وحينها بلغه مقتل ابنه على يد يهود توات، فانزعج وأمسك أهل توات الموجودين هناك، فأنكر عليه القاضي محمود بن عمر؛ إذ لم يفعلوا شيئا، فرجع عن ذلك وأمر بإطلاقهم، ثمّ رجع إلى توات فأدركته المنيّة بها، وتُوُفّيَ هناك سنة ٩٥٤ هـ، وممّن استفاد منه من أهل توات أَيْدَ أحمد والعاقب الأنصمني ومحمد بن عبد الجبار الفيجي و محمد بن أحمد التّازختي غيرهم[٦٧].

خامسًا: مرحلة الانكسار أو نكبات تنبُكْتو

كانت مدينة تُنبكتو تمثل مركزًا تجاريًا وثقافيًا هامًا في منطقة السّاحل بداية القرن الثّامن الهجري إلى القرن الحادي عشر الهجري، وبلغت أوج ازدهارها في القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين، ولهذا كانت مستهدفة من الغزاة، بيد أنّ أكبر الهجمات الّتي تعرّضت لها في هذه المرحلة حملة سُنّي علي سلطان مالي في بداية القرن التّاسع الهجري، وحملة أحمد المنصور الذّهبي سلطان السّعديّين بالمغرب الأقصى في نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر.

١/٥- النّكبة الأولى (حملة سُنّي علي):

وهي حملة سُنّي علي سلطان مالي على تُنْبُكْتو لضمّها لمملكته ومحاربة المُناوئين له، ويسمّيه عبد الرّحمان السّعدي التّنبكتي (ت. ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٦م) بالظّالم الأكبر والفاجر الأشهر، ويسمّيه بالخارجي[٦٨]، ويسمّيه صاحب "فتح الشّكور" بالظّالم الفاجر[٦٩]، كان متسلّطًا جبّارًا سفّاكًا للدّماء، تسلّط على العلماء بالقتل والإهانة والإذلال، واشتهر في الآفاق بذلك، وقد استشهد السّعدي على شهرته بما نقله الحافظ محمّد بن عبد الرّحمان العلقمي المصري (ت. ٩٦٩ هـ) تلميذ السّيوطي من شرحه على "الجامع الصّغير" للسّيوطي، وهو قوله: "سمعنا أنّ رجلا ظهر بالتّكرور يقال له سنّي علي أهلك العباد والبلاد ودخل في السّلطنة سنة ٨٦٩ هـ، وتُوُفّي في ٩٢٥ هـ"[٧٠]. ومكث في الحكم نحوا من ثمان وعشرين سنة فاشتغل بالحروب والغزوات، وفتح البلدان ووسّع مملكة مالي، وحارب صنهاجة في إقليم التّكرور كله، وفي الرّابع من شهر رجب سنة ٨٧٣ هـ دخل مدينة تُنْبُكْتُو وأحدث فيها فسادًا كبيرًا، فحرّق دورها وخرّبها وقتل منها خلقًا كثيرًا، ولما علِم أميرها بقدومه أحضر ألف جمل ورحّل فقهاء جامع سنكُري، ومشى بهم إلى وُلاتة، وقال إنّ شأنهم أهمّ عنده من ملك تنبكتو[٧١]، وهذا يدلّ على ثلاثة أشياء:

(١) أنّ فقهاء سنكُري كانوا مستهدفين من هذه الحملة، وخصوصًا أنهم معروفون بصلابتهم وشدّة إنكارهم على سلاطين زمانهم.

(٢) أنّ عدد هؤلاء الفقهاء كان كثيرًا، وأنّهم كانوا يملكون ثروة كبيرة، احتاجوا إلى ألف جمل ليفروا مع ممتلكاتهم وكتبهم، كما يدلّ أيضًا على الحركة العلميّة المعتبرة آنذاك.

(٣) مكانة العلماء عند أمراء تنبكتو كانت عظيمة؛ فهم الثّروة الحقيقيّة الّتي كانت تملكها تنبكتو؛ فالحفاظ على حياتهم أهمّ من الحفاظ على مدينة تنبكتو ذاتها.

وكان منهم الفقيه عمر بن محمد آقيت المسوفي الصّنهاجي وأولاده الثّلاثة: أحمد وهو أكبرهم سنّا، وعبد الله، ومحمود وهو أصغرهم (خمس سنوات)، ومشى معهم خالهم الفقيه النّحوي المختار بن أندغ محمد، وأدركوا الإمام الزّمّوري بولاتة فاستفادوا منه وأجازه كتاب "الشّفا". ولمّا كان لهم اشتغال بالعلم كانوا يمنعون أبناءهم من اللّعب وركوب الخيل والجمال، فأعوزهم ذلك عند الفرار وندموا على حرمانهم من اللّعب، وبعدما رجعوا إلى تنبكتو خلوا بينهم وبين اللّعب. واشتغل سنّي علي بقتل من بقي من الفقهاء بتنبكتو أو من لم يسعفه الفرار، وعمد إلى إهانتهم وزعم أنهم أحباب التّوارق وخاصّتهم فأبغضهم لذلك، وكان من بين قتلاه الفقيه محمود بن أندغ محمد وأخوه أحمد، واتّخذ بناتهم جوار ثمّ قتلهنّ جميعًا، وسجن والدة الفقيه محمود السيدة سِتَّ بنت أندغ محمد، أحد أهمّ وجهاء تنبكتو[٧٢].

وبعد رحيل الفقهاء قلّد سُنّي علي القضاء للقاضي حبيب بن عبد الرّحمان التّميمي، فأحسن إليه وأكرمه، ولم يزل يُهين فقهاء سنكُري وينكّل بمن ظفر منهم إلى سنة ٨٧٥ هـ، فخرج من بقي منهم إلى ولاتة أيضا، ولحق بهم عامله كُيْ[٧٣] المختار محمد بن نض، ومات في ذلك خيارهم، وتتبّع مَنْ لم تسعفه النّجاة قتلاً وتشريدًا، وتفرّقوا بين قُرى السّودان، وتعرّض التّوارق والفلانيون لبطش سلطان مالي؛ إذ هم أكبر المستهدفين من هذه الحملة على بلاد التّكرور كلها.[٧٤] وبعد استقرار الأوضاع بتنبكتو لسلطان مالي رجع بعض الفقهاء من ولاتة، ففي شهر شعبان سنة ٨٨٥ هـ خرج الفقيه محمود من ولاتة ورجع إلى تنبكتو، ورجع أيضًا خاله المختار النّحوي، وأمّا والده عمر بن محمد آقيت فقد توفّي في ولاتة وكذلك ابنه عبد الله[٧٥].

وبقي شرّ السلطان سنّي علي مستطيرا بين قُرى السّودان، فلم يهدأ له بال حتّى دوّخ إقليم التّكرور، وأحدث فيه النّهب والتّخريب والفساد، إلى أن تُوُفّي سنة ٨٩٨ هـ بعدما حارب الزّغرانيّين

والفلانيين وغيرهم من أمم التكرور، فخلفه ابنه أبو بكر ووقع الخلاف بينه وبين محمد بن أبي بكر الطوري أحد قيادات سُنّي علي، وبعد معارك كثيرة بينهما تغلّب الطّوري على سني أبو بكر وتملّك ما تركه سنّي علي، وتلقب بالأسكيا محمد، وفرّج الله به عن المسلمين الكروب، وأزال به عنهم البلاء والخطوب، واجتهد بإقامة ملّة الإسلام، وإصلاح أمور الأنام، وصاحب العلماء، واستفتاهم فيما يلزم من أمور الحلّ والعقد.(٧٦)

وفي صفر سنة ٩٠٢ هـ مشى الأسكيا الحاج محمد إلى الحجّ، فحجّ البيت مع جماعة من أعيان كلّ قبيلة، فتصدّق بمال كثير في الحرمين، واشترى حديقة بالمدينة المنوّرة وحبّسها على أهل التّكرور، ولقي الكثير من العلماء والفقهاء منهم الجلال السيوطي، واستفتاهم وتبرّك بهم، وقفل راجعا إلى غاو، فأعلن الجهاد على الوثنيّين في السّودان ودوّخ البلاد، وفي عهده أمِنت السّبل واسترجعت تُنبكتو دورها العلمي والحضاري(٧٧). وخلفه أبناؤه في الحكم وصارت بينهم صراعات ومطاحنات، لم تنته إلا بحملة أحمد المنصور السّعدي على بلاد التّكرور.

٢/٥- النّكبة الثّانية (حملة المنصور السّعدي):

بلاد السّودان كانت مرتبطة في أذهان أهل العصر الوسيط بتجارة الذّهب والرّقيق، وكانت المعلومات وأخبار السّودان تنتقل عن طريق التّجّار،(٧٨) وكانت أخبارها تُغْري السّلاطين طمعا في خيراتها وثرواتها، وخاصّة بعد رحلة الأسكيا الحاج محمد إلى الحجّ سنة ٩٠٢ هـ، والّذي وزّع ذهبًا كثيرًا في رحلته تلك، ولما آنس السّلطان المنصور السّعدي في نفسه القوّة واستتبّ له أمر المغرب الأقصى، وخصوصا بعد انتصار دولتهم على البرتغاليين والمناوئين في معركة الملوك الثّلاثة سنة ٩٨٦ هـ، لا زالت نفسه تحدّثه بالغزو وتوسيع مملكته، فامتدّت عينه إلى جهة الجنوب، لأنّها طريدة سهلة بالإضافة إلى ما ذُكر عن ثرواتها وكثرة العبيد والجواري بها، فلا زال المنصور يتحيّن الفرص، إلى أن كانت سنة ٩٩٩ هـ فجهّز جيشًا من المرتزقة وجعل عليهم القائد الأندلسي جودار باشا.

والسّبب المباشر لهذه الحملة هو أنّ السلطان السّعدي أرسل إلى الأسكيا إسحاق ليسلّمه خراج الذّهب بمنطقة تغاز، فلم يوافق الأسكيا على ذلك بل قبّح له الكلام في الجواب، فلمّا وصله الجواب عزم على غزو السّودان بعدما كان متردّدًا، وفي فاتح سنة ٩٩٩ هـ أرسل إليهم جيشا كبيرا مسلّحا بأسلحة نارية، ومعهم الأطباء والصّنّاع والكثير من المرتزقة الأندلسيّين والبرتغاليّين والأتراك، ولمّا دخلوا تنبكتو وجدوها أكثر عمارة وأمنا وعافية ورخاء.(٧٩) وأثناء هذا الغزو اضطربت الأوضاع وشاعت الفوضى، وصار النّاس يأكل بعضهم بعضًا في جميع الأمكنة طولاً وعرضًا، بالإغارة والحرابة عل الأموال والنّفوس والرّقاب، فعمّ ذلك الفساد وانتشر، وبالغ واشتهر.(٨٠)

وقد توجّه الباشا جودار إلى غاو لمحاربة جيش الأسكيا إسحاق سلطان السُّنْغَاي على ضفاف نهر النّيجر، وكانت معركة تونديبي يوم الأربعاء السّادس عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٩٩٩ هـ، والموافق للثاني عشر من شهر مارس سنة ١٥٩١ م شمال مدينة غاو، وقد كان جيش السّعديّين مكوّنا من حالي ثلاثة آلاف مقاتل يحملون أسلحة نارية والبارود، بينما كان جيش الأسكيا كبيرًا لكنّه يقاتل بأسلحة بدائية من الحِراب والسّهام والسّيوف، فكان النّصر حليف السّعديّين ودخلوا مدينة غاو، وفرّ الأسكيا جنوبا إلى الغابات، وكان يناوشهم من هناك.

ولما بلغ السلّطان السّعدي خبر النّصر فرح فرحا عظيما، فأخرج الصّدقات وأعتق الرّقاب وأقام مهرجانًا عظيما، ونظم الشّعراء قصائدهم ورفعوا أمداحهم، وأجازهم بما تحدّث النّاس عنه زمانًا طويلاً، وأرسل الغُزاة إلى المنصور بهديّة فيها عشرة آلاف مثقال ذهبًا ومائتان من خيار الرّقيق وغير ذلك، ثمّ أردفوا له بهدايا أخرى فيها أحمال من الذّخائر، فيها أربعون حملاً من التّبر، وأربعة سروج ذهبًا خالصًا، وألف ومائتان من متخيّر الرّقيق وغيرها، ولما وصلته هذه الهدايا سُرّ سرورًا عظيمًا، ولأجل ذلك لُقِب بالذّهبي، لأنّهم لم يشهدوا الذّهب الّذي شهدوه أيّام ولايته.(٨١)

ولم يكن أهل تنبكتو ينظرون إلى الغزاة بعين الرّضا والقبول، فثاروا عليهم عدّة مرّات، وكان بسبب ذلك خراب تنبكتو، ففي سنة ١٠٠٠ هـ جرى قتال بين أهل تنبكتو والقائد مصطفى التركي عامل السّعديين، فأدّى إلى هلاك النّاس واحتراق الدّور، وتكرّر ذلك في عدّة مناسبات كما حدث سنة ١٠٠٥هـ، ولم يستتبّ الأمر للسّعديّين في التّكرور لكثرة الثّورات عليهم من التّوارق وقبائل صنهاجة والسّودانيّين، ثمّ توالى ولاة السّعديين على بلاد السّودان وأكرهوا النّاس على بيعتهم، فهدّدوهم وفتّشوا دورهم، وحشدوا النّاس في جامع سنكري للمبايعة، ووزّعوهم بحسب قبائلهم في جامع سنكري لذلك في أيّام معلومات، فحلف التواتيون والفزانيون والوجليون في اليوم الأوّل الموافق للثّاني والعشرين من شهر محرّم سنة ١٠٠٢ هـ، ثمّ حلف الولاتيون والوادانيون ومَنْ والاهم في اليوم الثّاني الموافق للثّالث والعشرين، وأمّا الفريق الثّالث فهم العلماء والفقهاء، فأحضروهم في اليوم الثّالث وأسروهم جميعًا؛ فريق أُسر في تنبكتو وكان بينهم فيما يظهر العلامة المجدّد محمّد بَغْيع، وفريق آخر أُخرج من البلد وأُخذ إلى مرّاكش بطلب من السّلطان السّعدي، وقد قُتل منهم الكثير كالفقيه أحمد مُعْيا، ومحمد الأمين بن محمد بن محمود، ومحمد المختار بن مُعْيا وغيرهم.(٨٢)

ثمّ دخل الباشا محمود ديارهم ورفع جميع ما فيها من الأموال والمتاع والأثاث، ونهب أتباعه ما اتّصل بهم، وكشفوا عوراتهم وجرّدوا حرائرهم وفعلوا بهنّ الفواحش، ثمّ جمعوا كبار فقهاء تُنْبُكْتو وأخذوهم مصفّدين بالأغلال إلى مُرّاكش، منهم أحمد بابا والفقيه والقاضي أبو حفص عمر بن محمود، دخلوها أوّل شهر رمضان، وعندما رأى القاضي عمر بن محمود مدينة مُرّاكش دعا

عليهم، وقال: "اللّهمّ كما شوّشونا وأخرجونا من بلادنا فشوّشْهم وأخرجْهم من بلادهم".[٨٣]

- محنة آل أقيت:

نستطيع اعتبار أسرة آل آقيت المسوفية الصّنهاجية النّواة الأولى للحياة الاجتماعية والسّياسيّة والدّينية لمدينة تُنْبُكْتو، فأجدادهم مسوفة هم من بنوا هذه المدينة، وقد توارثوا العلم أزيد من قرنين، وكانوا أهل اليسار والسّؤدد لا يبالون بالسّلطان فمن دونه، بل لا يقطع أمرًا دون مشورتهم، فهم أهل القضاء والإمامة والفتيا ببلاد السّودان، ولمّا دخلها الباشا محمود أبقاهم على حالهم إلى أن كانت سنة ١٠٠٢ هـ، سئمت العامّة من الغرباء وحاربوهم، فكتب المنصور إلى عامله محمود بالقبض على الفقهاء وأهل الرّأي فيهم، وقضى بتغريبهم إلى مُرّاكش، فألقى القبض على جماعة كبيرة منهم كان فيهم أحمد بابا[٨٤]، وحُمِلوا مصفّدين إلى مُرّاكش ومعهم حريمهم، وانتهبت ذخائرهم وكتبهم، وكان أحمد بابا أقلّ عشيرته كتبا نُهِب منه ألفٌ وستّمائة مجلّد.[٨٥]

وأودعهم المنصور السّجن ولم يطلق سراحهم إلا في الحادي والعشرين من رمضان من سنة ١٠٠٤ هـ بشرط بقائهم في مُرّاكش، وجرت بين أحمد بابا والمنصور الذّهبي معاتبة ومناظرة، قال النّاصري: "... ولما دخل الفقيه أبو العبّاس على المنصور بعد تسريحه من السّجن وجده يكلّم النّاس من وراء حجاب على طريقة خلفاء بني العبّاس ومن تشبّه بهم، فقال الشّيخ: إنّ الله تعالى يقول: "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اَللهُ إلا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَاب"، وأنت قد تشبّهت بربّ الأرباب، فإن كانت لك حاجة في الكلام فانزل إلينا وارفع عنّا الحجاب، فنزل المنصور ورُفعت الأستار. فقال له الشّيخ: أيّ حاجة لك في نهب متاعي وتضييع كتبي وتصفيدي من تنبكتو إلى هنا، حتّى سقطت عن ظهر الجمل واندقّت ساقي؟ فقال له المنصور: أردنا أن تجتمع الكلمة، وأنتم في بلادكم من أعيانها، فإن أذعنتم أذعن غيركم. فقال الشّيخ أبو العبّاس: فهلا جمعت الكلمة بتُرْك تلمسان فإنّهم أقرب إليك منّا؟ فقال المنصور: قال النّبيّ (ﷺ): "اتركوا التّرك ما تركوكم"، فامتثلنا الحديث. فقال أبو العبّاس: ذاك زمانٌ وبعُد، قال ابن عبّاس: "لا تتركوا التُّرْك وإن تركوكم" فسكت المنصور وانفضّ المجلس"[٨٦]. ولما سُرّح أبو العبّاس تصدّر لنشر العلم وهرع إليه النّاس للأخذ عنه، وقد كان أبو العبّاس يتشوّق إلى بلده ويسكب العبرات عند ذكرها، ولمّا مات المنصور سنة ١٠١٢ هـ وخلفه ابنه زيدان سمح لأهل تُنبكتو بالرّجوع إلى وطنهم، ولمّا خرج أحمد بابا من مراكش قاصدا بلده شيّعه عيون طلبتها، فأخذ بعضهم بيده عند الوداع، وقرأ قوله تعالى: "إِنَّ اَلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ اَلْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَاد" على ما جرت به العادة من قراءتها عند وداع المسافر فيرجع سالما، فانتزع الشّيخ يده بسرعة، وقال: لا ردّني الله إلى هذا المعاد، ولا رجعني إلى هذه البلاد، ثمّ لحق بتنبكتو فاستقرّ بها إلى أن تُوُفّي سنة ١٠٣٦ هـ[٨٧].

نتائج البحث:

- ساهمت عدّة عوامل في تأسيس مدينة تُنْبُكْتُو، أبرزها العامل التّجاري حيث كانت معبرًا للقوافل التّجاريّة، وموضعًا هامًّا للظّعن والرّعي بالنّسبة لقبائل صنهاجة، كما كانت للظّروف السّياسيّة في القرن الخامس الهجري دور في نشوء تجمّع ديني بهذه المنطقة، ونقصد بالتّحديد دعوة المرابطين الّتي تبلورت وانطلقت من بلاد التّكرور اعتمادًا على سواعد قبائل صنهاجة.
- شكّلت قبيلة مسوفة الصّنهاجية النّواة الأولى لهذا التّجمّع السكاني، وهم توارق إمقشرن، فيما كان لأبناء عمومتهم من لمتونة وجدالة عصبُ تكوين دولة المرابطين في مُرّاكش، ولهذا يُرجّح أنّ بناء مدينة تُنبكتو كان بالموازاة مع بناء مدينة مرّاكش، وكان لهذا اللّفيف أيضًا صدى بعيد المدى من بلاد السّودان الغربي جنوبًا إلى طليطلة في الأندلس شمالاً، وقد شكّلت عصبيّة واحدة، كان من نتائجها بقاء المسلمين في الأندلس لأربعة قرون أخرى بعد أن وصل الوهن إلى دويلاتها، وكان ذلك بالطّبع إثر انتصارهم في معركة الزّلاقة سنة (٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦م).
- شكّل التنوّع الإيثني بتُنبكتو حركيّة هامّة لتكوين مناخ فكري وثقافي هامّ ظهر مع حلول القرن الثّامن الهجريّ، واكتملت أجزاؤه في القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين، وتمثّل في توارق صنهاجة وقبائل السّودان، وعرب الأزواد وبعض البيوتات من النّسب الشّريف والعترة الطّاهرة، بالإضافة إلى المهاجرين من مصر والحجاز والأندلس من الفقهاء والعلماء والتّجّار.
- بدأ الدّور العلمي والثقافي والدّيني لتنبكتو يبرز مع حلول القرن الثّامن الهجري، خصوصًا مع بداية قدوم العلماء والأدباء إليها، كأبي الحسن الأندلسي النّحوي (ت. ٧٢٤ هـ)، والأديب أبي إسحاق السّاحلي (ت. ٧٤٧ هـ)، ومرور أشهر الرّحالة بها (ابن بطوطة الطنجي)، وأيضًا رحلة طلبتها إلى الحجّ والمشرق والمغرب.
- وصلت مدينة تُنْبكُتو إلى دورها الرّيادي في القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين، وقد مثّلت مركزًا علميًّا وتجاريًّا رائدًا في منطقة التّكرور، وهذا الدّور نافسها فيه مدينة ولاتة لكنّها لم تبلغ مبلغها، كما مثّلت مدينة تنبكتو نقطة انطلاق ومركز إشعاع لنشر الإسلام في أعماق إفريقيا، ممّا جعلها تقع تحت أطماع الغزاة قديمًا وحديثًا.
- إنّ غالب مرجعيتهم العلميّة والدّينيّة لأهل تُنبُكتو كانت رواق المغاربة في مصر، وأنّ اللّقانيّين والسّيوطي والتّاجوري والقلقشندي كانوا أهمّ أسانيد علماء تنبكتو ومنطقة السّاحل الإفريقي، ثمّ صار لهم في القرن العاشر شبه استقلالية فكريّة إن صحّ التّعبير، وقد اهتمّوا بالتّأليف ونسخ المخطوطات وشرائها، والتي قد ضاع الكثير منها بسبب الغزو السّعدي ثم الفرنسي.
- كان مسجدها سنكُري يمثّل جامعة حقيقيّة للدّراسات العليا آنذاك، تخرّج منها كبار الفقهاء والعلماء، مثل العلامة المجدّد

محمّد بَغْيُع (ت. ١٠٠٤ هـ)، والّذي لقبه تلميذه أحمد بابا بمجدّد العصر، بقوله: [الرّجز] وعاشر القرون فيه قد أتى*** محمّدٌ إمامنا وهو الفتى[٨٨].

- تعرّضت تنبكتو لنكبات عديدة؛ إذ كانت مستهدفة بسبب ثرائها وبسبب علمائها، كانت أهمّها نكبتين اثنتين؛ فتنة سلطان مالي سُنّي علي في نهاية القرن التّاسع الهجري الّذي تسلّط على علماء سنكُري تقتيلاً وتشريدًا، وحملة السّعديّين عليها سنة ٩٩٩ هـ.
- تعتبر حملة السّعديّين على تنبكتو محطة بارزة في تاريخها، والتي قضت على الحركة العلميّة بها، وفتحت المجال واسعًا للفوضى وعودة الوثنيّة إلى عموم السّودان، وهذه الحملة لم تضعف تنبكتو فحسب، بل أضعفت المغرب كلّه ممّا فتح المجال واسعًا أيضًا للأطماع الأوروبية في المنطقة، وخصوصًا إسبانيا وفرنسا.

الهَوامِشُ:

(١) انظر: "**حملة تنصير الطّوارق**"، مجلة البيان، السنة الخامسة، ربيع الآخر ١٤١١هـ، العدد (٣٣)، ص٦٤.

(٢) انظر: **تحفة النّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** (رحلة ابن بطوطة)، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطّنجي اللّواتي الشّهير بابن بطوطة (ت. ٧٧٩ هـ)، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧ هـ، ج٢/ ص ٥٣٨.

(٣) انظر: **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**، أبو العباس شهاب الدّين أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحـ: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد العظيم شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٩. (٥٧/٣)، و**خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، محمد أمين بن فضل الله بن محبّ الدّين المحبّي (ت. ١١١١ هـ)، دار صادر- بيروت، د.ت. (٤٤٨/٤)، و**تاج العروس من جواهر القاموس**، أبو الفيض محمد بن محمد الحسيني المعروف بمرتضى الزَّبيدي، دار الهداية- بيروت، د.ت (٤٧١/٤) مادّة "تيت"، وفهرس الفهارس ١١٤/١.

(٤) انظر: **الموسوعة القرآنية**، إبراهيم الأبياري، مؤسّسة سجل العرب، ط١- ١٤٠٥ هـ. (ج١/ ص٣٩٧)، و**الفكر السّامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، محمد بن الحسن الحجوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط ١ – ١٤١٦ هـ، ج ٢ ص ٣٢٦.

(٥) انظر: **قصّة الحضارة**، وليام جيمس، ترجمة زكي نجيب محمود وآخرون، دار الجيل – بيروت، ١٩٨٨، ج ٢٣ ص ٥٢.

(٦) انظر: **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، محمد بن أبي بكر الصديق الولاتي، تحـ: محمد إبراهيم الكتّاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ط١- ١٩٨١، ص ٢٦.

(٧) انظر: **وصف إفريقيا**، الحسن بن محمد الوزان، ج ٢ ص ١٤٨.

(٨) انظر: نفسه، ج ٢ ص ١٤٨.

(٩) الظاهر أن كلمة زناقة تحريف لنطق كلمة صنهاجة.

(١٠) انظر: **فتح الشكور**، ص ٢٦.

(١١) انظر: **وصف إفريقيا**، الحسن بن محمد الوزان، ج ١ ص ٧٧.

(١٢) انظر: **أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في حركة عثمان بن فودي الإصلاحية في غرب أفريقيا**، مصطفى مسعد، عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط ٢ – ١٤١١ هـ، ص ٤٢٩.

(١٣) انظر: **الموسوعة القرآنية**، ج ١١ ص ٣٩٧.

(١٤) انظر: **وصف إفريقيا**، الحسن الوزّان، ج ٢ ص ١٦٨.

(١٥) انظر: **تاريخ ابن خلدون**، ج ٦ ص ١٧٦.

(١٦) انظر: **دولة الإسلام في الأندلس**، محمد عبد الله عنّان، مكتبة الخانجي – القاهرة، ط ٤ – ١٩٩٧، ج ٢ ص ٣٠٢، و**الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، أبو الحسن علي بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسي، تحـ: كارل نونبرغ، مطبعة أوبسالة، ١٨٤٣، ص ٢٦.

(١٧) انظر: **دولة الإسلام في الأندلس**، ج ٢ ص ٣٠٣.

(١٨) انظر: **تاريخ السّودان**، عبد الرحمن بن عبد الله السعدي، تحـ: أوكتاف هوداس، مكتبة أمريكا والشرق، باريس، ١٩٨١، ص ٢٠.

(١٩) انظر: **رحلة ابن بطوطة**، ج ٤ ص ٢٦٩.

(٢٠) انظر: نفسه، ص ٢١.

(٢١) انظر: نفسه، ص ٢١.

(٢٢) انظر: نفسه، ص ٢١، ٢٢.

(٢٣) انظر: **الروض المعطار**، الحميري، ص ٤٢٦.

(٢٤) **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الشّريف الإدريسي، عالم الكتب – بيروت، ط ١ – ١٤٠٩هـ، ج ١ ص ١١٠.
(٢٥) انظر: **نفح الطّيب**، ج ٤ ص ٣٦٧.
(٢٦) انظر: **نزهة المشتاق**، ج ١ ص ١٧١، **ورحلة ابن بطوطة**، ج ٢ ص ٢٦٩.
(٢٧) انظر: **معجم البلدان**، ياقوت الحموي، ج ٢ ص ١٤، **والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الناصري، ج ٢ ص ٣.
(٢٨) انظر: **دولة الإسلام في الأندلس**، ج ٢ ص ٣٠٢.
(٢٩) انظر: **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، أبو عبيد البكري، دار الكتاب الإسلامي – القاهرة، د.ت، ص١٦٨ وما بعدها، وقيام دولة المرابطين، حسن أحمد محمود، مكتبة النهضة المصرية، ط١ – ١٩٥٧، ص ١٤٩ وما بعدها.
(٣٠) انظر: **البيان المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والأندلس والمغرب**، ابن عذارى المراكشي، تح: إحسان عباس، دار الثقافة – بيروت، ط٣-١٩٨٣، ج ٤ ص ١٩، ٢٠.
(٣١) انظر: **تاريخ السودان**، ص ٢٠.
(٣٢) انظر: نفسه، ص ٢١.
(٣٣) **وصف إفريقيا**، الحسن الوزان، ج ٢ ص ١٦٥.
(٣٤) يكتب أحيانا: سنكري، وأحيانا: سانكوري، وأحيانا: سانكري.
(٣٥) انظر: **تاريخ السّودان**، ص ٢٧.
(٣٦) انظر: نفسه، ص ٥٧، وص ١١٠.
(٣٧) انظر : نفسه، ص ٢٠.
(٣٨) انظر: نفسه، ص ٢١.
(٣٩) تُكتب: سنغي، وسونغاي، وسنغاي، وبالصاد فيهم أيضا.
(٤٠) تكتب هذه الكلمة: سن، وصن، وصوني وسوني أيضا.
(٤١) انظر: **تاريخ السّودان**، ص ٢١.
(٤٢) انظر: نفسه، ص ٢٢.
(٤٣) انظر: **وصف إفريقيا**، الحسن الوزّان، ج ١ ص ١٧١، ١٧٢.
(٤٤) انظر: **فتح الشكور**، ص ٢٧.
(٤٥) انظر: **نيل الابتهاج**، ص ١٨٢.
(٤٦) انظر: نفسه، ص ١٥١، **وتاريخ السّودان**، ص ٣٢.
(٤٧) انظر: نفسه، ص ٢٧٥.
(٤٨) انظر: نفسه، ص ٥٨٧، **وتاريخ السّودان**، ص ٣٩، ٤٠.
(٤٩) انظر: نفسه، ص ٦٠٧، ٦٠٨، **وتاريخ السّودان**، ص ٣٨، ٣٩.
(٥٠) انظر: **تاريخ السّودان**، ص ٤١.
(٥١) انظر: **نيل الابتهاج**، ص ٥٩١.
(٥٢) انظر: **تاريخ السّودان**، ص ٣٦.
(٥٣) انظر: **فتح الشّكور**، ص ١٧٧.
(٥٤) انظر: **نيل الابتهاج**، ص ٢٣٤، ٢٧٥.
(٥٥) انظر: **نيل الابتهاج**، ص ٦٠٨، **وفتح الشّكور**، ص ١٤٦.
(٥٦) انظر: نفسه، ص ١٩١- ١٩٥.
(٥٧) انظر: نفسه، ص ١٧٦، **وتاريخ السّودان**، ص ٥١.
(٥٨) انظر: نفسه، ص ٤٢، ٤٣.
(٥٩) انظر: نفسه، ص ٧٠.
(٦٠) انظر: نفسه، ص ٥٠.
(٦١) انظر: نفسه، ص ١٥٤، ١٥٥.
(٦٢) انظر: **انبعاث الإسلام في الأندلس**، علي بن محمد عنّان، ص ٤٠٤.
(٦٣) انظر: نفسه، ص ١٩٦، ١٩٧.
(٦٤) انظر: **إنباء الغمر بأبناء العمر**، ابن حجر، ج ٢ ص ٢١٦.
(٦٥) انظر: **نيل الابتهاج**، ص ٢٦٤، ٢٦٥.
(٦٦) انظر: **تاريخ السّودان**، ص ٢٢.
(٦٧) انظر: **نيل الابتهاج**، ص ٥٧٧، ٥٧٨.
(٦٨) انظر: **تاريخ السّودان**، ص ٦٥.
(٦٩) انظر: **فتح الشكور**، ص ١٧٧.
(٧٠) انظر: **تاريخ السّودان**، ص ٦٥.
(٧١) انظر: نفسه، ص ٦٦.
(٧٢) انظر: نفسه، ص ٦٦.
(٧٣) معناه الوالي أو النائب.
(٧٤) انظر: نفسه، ص ٦٧.
(٧٥) انظر: فتح الشّكور، ص ١٧٧، **وتاريخ السّودان**، ص ٦٩.
(٧٦) انظر: **تاريخ السّودان**، ص ٧٠ وما بعدها.
(٧٧) انظر: نفسه، ص ٧٢، ٧٣.
(٧٨) انظر: **وصف إفريقيا**، الحسن الوزان، ج ١ ص ٣٣، ٣٤.
(٧٩) انظر: **تاريخ السّودان**، ص ١٤٢.
(٨٠) انظر: نفسه، ص ١٤٣.
(٨١) انظر: **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج ٥ ص ١٢١ وما بعدها.
(٨٢) انظر: **تاريخ السّودان**، ص ١٦٩.
(٨٣) انظر: نفسه، ص ١٧٣.
(٨٤) انظر: **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج ٥ ص ١٢٩.
(٨٥) انظر: **الفكر السّامي**، ج ٢ ص ٣٢٦.
(٨٦) الاستقصا، ج ٥ ص ١٣٠.
(٨٧) انظر: نفسه، ج ٥ ص ١٢٩، ١٣٠.
(٨٨) انظر: **أزهار الرّياض**، المقري، ج ٣ ص ٥٧.